على طريق الأصالة

(٢٨)

الخروج من التبعية

أنور الجندى



بسم الله الرحمن الرحيم

الخروج من التبعية

بناء الأجيال بالتربية القادرة على استرداد الأرض

واستعــادة الحق المسلوب

إن أخطر محاولات النفوذ الأجنبي التي تتركز اليوم من خلال مناهج التربية والثقافة والمسرح ووسائل الترفيه، بل ومن خلال الأزياء والملابس هي خلق جو من (الأمن الكاذب) والانفصال التام عن ما يجرى حولنا من أخطار ومحاذير، ومخططات ترمى إلى احتواء هذه الأمة على المدى الطويل، وعلى انتهاز أي ثغرة للوثوب والسيطرة وإثارة عوامل الصراع والاضطراب بين العناصر المتلاقية تحت لواء الوطن العربي، ذلك لأن الخطر الحقيقي الذى يتمثل في النفوذ الأجنبي أصبح الآن قادراً على أن يتخفى وراء مظاهر دقيقة ومعالم مضيئة بحيث يسرى في الأعماق دون أن ينكشف مظهره أو يحال بينه وبين تحقيق هدفه.

إن هذه الأمة قد أخرجت للناس بمفهوم المقاومة والمرابطة والاستعداد والقدرة على الردع والوعي الكامل لكل ما يجرى حولها والفهم العميق لمخططات الأعداء التي لا تنتهي ولا تتوقف ، والتى تتطلب الحماية والحذر والحرص الدائم من الاستغراق فى الترف الكاذب والاسترخاء والتطلع إلى اللذات السريعة الخاطفة والأهواء المذلة .

إن الأجيال الجديدة المسلمة التى تتطلع إلى الأفق من حولها يجب أن تصنع صناعة خاصة فى إطار الاخشوشان والبذل والتضحية والموت فى سبيل الله ، وأن تكون مستعدة لتقدم نفسها رخيصة فى سبيل استعادة الحق المسلوب واسترداد الأرض وتحرير الوطن الإسلامى كله من مختلف جيوب النفوذ الأجنبى .

وهذا فى الحقيقة هو مفهوم (الانسحاب من العصر والارتداد عنه) .

إنه ليس الانسحاب من العصر ولكنه الانسحاب من فساد العصر ورخاوته وتحلله وجريانه وراء الحرام وإسرافه فى العبث والانحراف وتدمير بناء المجتمع وتحطيم الأسرة ، وهو هدف القوى التى تريد أن تصيب الإسلام فى مقتل .

وهذا الانسحاب من فساد أطروحة الرخص والاستسلام

لانحراف المجتمع والقبول به وتبريره ليزهو ذلك الخليط العجيب من بريق الألوان والالحان والاختلاط والجرى وراء ملذات الحرام من اغتصاب ومحاصرة واندفاع وراء الشهوات .

وإنا لنرى أن الصحوة الإسلامية أخذت ترد الشباب المسلم عن هذه الأهواء وتجعله يحس بالغربة عن هذا الصخب العابث احتماءاً بالإيمان والعفاف والصمود فى وجه المغريات والاستعلاء على المطامع والأهواء والبريق

وتتراءى اليوم هذه الصور من البطولات والتضحيات التى يقوم بها شباب غض فى سبيل مرضاة الله وطمعاً فى الاستشهاد وحرصاً على تدمير قوة البغى الطاغية المتسلطة على أرض المسلمين . إن الموت فى سبيل الله وتقديم الروح رخيصة فى سبيل استعادة الحق تتألق اليوم فى قلوب شباب مسلم كأروع ما تكون صور الحب والتضحية والبذل وافتداء الأمة الإسلامية وقيمها .

وهو تيار يعمق يوماً بعد يوم حيث تحقق تماماً أن أسلوب الفلسفة السياسية الغربية الذى فرض على الأمة الإسلامية عقوداً متوالية كان أسلوباً ملتوياً خادعاً مضللا يخالف مفهوم الإسلام الواضح الصريح .

ولقد كشف هذا التحول عن أن مفهوم الجهاد والحسم والردع هو

الأسلوب الصحيح الذى يضع الأمور فى موضعها الصحيح ، ولقد كان هذا التحول دليلا على أن المسلمين أصبحوا على الجادة وأنهم يسيرون فى الاتجاه الصحيح وأن كل المحاولات التى قام بها الغرب فى ضراوة وموالاة لإدخال المسلمين فى دائرة نظرية السلام الوهمى المبطن بالتسليم والخضوع والذل ، كل هذه المحاولات قد تحطمت تماماً وقد أصبحت كالجسم الغريب الذى لا يقبله الكيان الصحيح وأن التجارب التى عاشها المسلمون فى التعامل مع القوى الزاحفة قد كشفت له عن طوابع الخداع والمكر والتآمر الذى كان يساق للمسلمين فى عبارات براقة أو محاولات خادعة لامتصاص غضب المسلمين إزاء ما وقع بهم ، كل هذا قد تكشف زيفه ولم يعد أمام المسلمين إلا الشك فى كل هذه المطروحات بعد أن وضح فسادها وعجزها ، وأنها لم تكن أكثر من مسكنات خادعة حتى يقبل المسلمون مع مرور الأيام ماوقع بهم من مظالم .

إن هذه الظاهرة الجديدة التى حققتها الصحوة الإسلامية على طريق الخروج من التبعية بالعودة إلى حمل السلاح وإلى صناعة الموت وإلى الإقبال بفرح وسرور وإيمان إلى الاستشهاد وبذل النفس الغالية رخيصة فى سبيل مواجهة الخطر الزاحف والممتد ، هذه الظاهرة يجب أن تمتد وتتسع حتى تشمل كل مناطق الأمة الإسلامية المقهورة إيماناً بضرورة استعادة الأرض الإسلامية التى سلبها الأعداء .

لقد حذر القرآن الكريم تحذيراً شديداً من الغفلة ودعا إلى أن

تبقى الأمة الإسلامية دائماً على تعبئة وأن تكون على حيطة تامة من العدو المتربص ومن الغزو المباغت وذلك بالمرابطة فى الثغور والاخشيشان فى الحياة والتعرف إلى وجهة العدو ومطامعه .

ولقد حفل تاريخ الإسلام بهذه الصور البارعة فى اليقظة والحذر والوقوف فى وجه العدو ، والحيلولة دون تمكينه من اختراق الثغور والحدود والقدرة أيضاً على استعادة ما فقده المسلمون .

كما حذر الإسلام المسلمون من الانصهار فى القوى العظمى ، أو فقدان طابعهم المميز أو تذويب العدو لذاتيتهم فى الأممية العالمية ، كما كشف القرآن الكريم للمسلمين أسباب سقوط الأمم وانهيارها ، وكيف قصم الله القرى التى ظلمت نفسها وتراخت وذهبت مذهبها فى الترف والخضوع ، وتراخت عن تطبيق منهج الله على النحو الذى عمد النفوذ الغربى على فرضه على المسلمين فى محاولة لاحتوائهم ثم صهرهم فى بوتقته ، وكيف دعا القرآن المسلمين إلى حياة العزة والكرامة المستمدة من عزة الله حيث أن العزة لله جميعاً ، وإلى التحرر من الولاء للظالمين والفاسدين وخصوم الإسلام الراغبين إلى تدميره والقضاء على وجوده بعد تحويل وجهته ويزخر القرآن الكريم بفيض من الآيات التى تشى بالقوانين التى ترسم السبيل الأقوم للتقدم (بمفهوم الإسلام الجامع بين التقدم المادى والمعنوى) نحو عيش أوفر كرامة .

كما دعا إلى حماية شخصية الأمة (لغتها وعقيدتها وتاريخها) من أن تلعب به أهواء الأمم ، كما دعا إلى تخليص الفرد المسلم من مركب النقص ومن عقدة الافتتان ببريق الحضارة ونقله إلى عملية الإقرار بالإسلام والإيمان والتضحية والبذل فى سبيل إعلاء كلمة الله وإقامة منهجه .

إن حماية أمتنا الإسلامية القرآنية من الذوبان فى الأممية هو من أخطر التحديات التى تواجهنا فى هذه المرحلة والتى يجب أن يجند لها الشباب المؤمن الذى يفتدى دعوة الله بروحه ودمه .

إننا مطالبون اليوم بأن نراجع صفحات جهاد المسلمين فى مواجهة طغيان الصليبيين والدخول والاستعمار المعاصر ، ولن يقدر لهم أن يسحقوا القوى التى تجثم على صدورهم فى أفغانستان والفيلبين والقــــدس وأريتريا ما لم يعتصموا بحبل الله جميعاً ويتسلحوا بسلاح العقيدة .

إن من يراجع تجربة الحروب الصليبيـة ويحاول أن يقارنها بالغزوة الصهيونية الممتدة اليوم على جبهة العالم الإسلامى منذ أكثر من أربعين عاماً يجد أن المسلمين قد أفادوا من الحروب الصليبية درساً أساسياً هو أن معركتهم مع العدو هى معركة إسلامية أساساً ليست قومية ولا وطنية ، وإن حلها لن يكون إلا بالجهاد المقدس » هذا هو المنطلق الصحيح وأنه هو وسيلة الردع الحقيقية فى كل المعارك فى طول الأمة الاسلامية وعرضها وأن أسلحة المعركة هى

زمام المبادرة الحقيق ، وهذا هو مقياس النصر الذى قدمه القرآن للمسلمين :

(إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) وإن بيع الأنفس لله رخيصة والاستشهاد فى سبيل الله إعلاء وكلمة الله هو قاعدة العمل الحقيق فى وجه الغارة الصهيونية الغربية الماركسية على أرض الإسلام) .

والمسلمون الآن أكثر قدرة على المواجهة وذلك بالرغم من تحولهم البطىء نحو إحكام قبضة العمل المؤثر ، ولكن الخطوات التى تمت حتى الآن تكشف عن أن عوامل الإصرار على المقاومة واستعادة الأرض المغتصبة تتزايد يوماً بعد يوم ، بالرغم من عوامل الضغط الشديدة التى ترمى إلى توهين قوتهم وقبولهم الواقع والاستسلام أمام المغريات .

والواقع أن ظاهرة المد الإسلامى التى تهز العالم الغربى اليوم هزاً ، إنما هى ثمرة حقيقية من ثمار ذلك التحول الخطير من النفوذ الغربى إلى فكرة الانقضاض على أرض الإسراء بحجة أنها كانت مقراً لإقامة بعض العناصر قبل أكثر من ألفى سنة .

ومن هنا فإننا فى حاجة إلى تحرير فكرة الجهاد والعمل على

دحض مقولة : أن الإسلام يدعو إلى الحرب الدينية من خلال الجهاد فالإسلام يؤمن بأن الدعوة إلى الله لا تقوم على أساس مبدأ الهجوم بل على فكرة دفاعية فى الأساس . فالجهاد فى سبيل الله ليس سبيلا لإدخال الناس فى الإسلام ولا سبيلا لقهر القلوب على قبول الدين الجديد (لا إكراه فى الدين) ولكن الجهاد وهو عملية تعبئة فى مواجهة الأخطار التى يتعرض لها العالم الإسلامى بما يسمى اليوم : (القدرة على الردع) وهى ترمى إلى أن يكون المسلمون فى رباط دائم واستنفار مستمر ويقظة لا تعرف الاسترخاء حيث لا أمن ولا أمان لهذا الوطن الإسـلامى إلا فى ظل الإعداد والمرابطة فى الثغور .

نعم : يجب أن يكون المسلمون دائماً على تعبئة فهم فى رباط إلى يوم القيامة كما قال رسول الله ﷺ : إن سبيل النجاة كامن فى سلوك خط الجهاد والمسلمون لا تنقصهم الكفاءات المؤهلة لخوض معركة البناء والنصر .

إن فكرة الاستنفار اليوم لنصرة الإسلام إزاء ما يكاد له ويدبر من مؤامرات أصبحت ضرورة أساسية .

يجب أن يكون هناك تفرقة واضحة وعميقة بين منطلق الجهاد من أجل استرداد الحقوق المشروعة وبين منطق القوة والإرهاب الذى هو منطق البغى والقتل والترويع ، أما منطق الجهاد فهو منطق الدفاع

عن الحقوق الإنسانية التى منحها الله تبارك وتعالى للبشر واتفقت عليها مواثيق الأمم المتحدة وآخرها إعلان حقوق الإنسان، إن منطق فرض السيطرة بالقوة على أراضى الغير وترويع أهل الأوطان منطق مؤقت ولا يمكن أن يستمر على المدى البعيد مهما كانت الجماهير العزلاء لا تملك من السلاح ما تستطيع أن ترد به عدوان المعتدين ذلك لأن عبرة التاريخ تقول: إن الله تبارك وتعالى أكبر من كل قوة وأن النصر فى النهاية لمن يرفعون راية الحق المشروع ومصير الحق أن يعلو ومصير البغى أن يسقط.

(٢)

إن توالى الأحداث وتنامى الأخطار التى تحيط بالأمة الإسلامية ليوحى بما وراء ذلك من مخططات تعدها القوى الكبرى من أجل تدمير الكيان الإسلامى بمزيد من تمزيق المجتمعات الإسلامية والحيلولة دون تمكينها من التقارب والالتئام، مما يستدعى ارتفاع الصيحة بالعمل على المحافظة على الشخصية الإسلامية والحرص على ألا تذوب فى المحيط الأممى بصفة عامة أو أن تذوب فى المحيط اليهودى القريب شيئاً فشيئاً والعمل على دعم معالم الذاتية الإسلامية وحمايتها من الانصهار فى الحضارة الأممية أو الفكر العالمى الذى يرمى إلى إذابتها وتمييع كيانها الخاص المتميز.

ولقد حرص الإسلام منذ اليوم الاول - على حد عبارة اللواء محفوظ -

على التحذير من تقليد الغير تقليداً أعمى فى كثير من مظاهر حياته وعاداته ، حتى لا يفقد المسلمون شخصيتهم المميزة لهم وهو ما عبر عنه الرسول ﷺ بقوله (من تشبه بقوم فهو منهم) .

كذلك فقد دعا رسول الله المسلمون إلى مخالفة الأمم فى عاداتها وملابسها وقال : (أصلحوا رحالكم ولباسكم حتى تكونوا فى الناس كأنكم شامة) . كما دعا إلى استقلال الشخصية (لا يكن أحدكم إمعة ، يقول إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم) .

ويعنى هذا كله أن (شخصية الأمة) بقيمها وتقاليدها هو أمر خاص بها ، أما العلم والمعرفة فهى تراث الإنسانية كلها فالذى ينهى عنه الإسلام هو تقليد الأمم فى ثقافتها وتقاليدها والذوبان فيها .. وهذا لا يمنع المسلمين من الإفادة بما لدى العالم من كله علم وتقدم وصناعة .

وهذا ما قمنا به نحن المسلمون حين فتحنا الباب واسعاً أمام الأمم الاوروبية فى أول عصر النهضة لأن ينهلوا من جامعات المسلمين من العلوم .

• • •

ويتصل بهذا على نحو واضح مفهوم المسلمين وعقيدتهم الفكرية الخاصة التى ترتكز أصولها على وحى منزل وسنة معصومة وتجربة إنسانية قاد لوائها الرسول الكريم ﷺ وصحابته وحققت التمكين لدولة الإسلام من المحيط إلى المحيط .

وقد دعا الإسلام — كما يقول اللواء محفوظ — إلى الانتصار للعقيدة الفكرية الإسلامية ووجوب الالتزام بها فى القوات المسلحة جيوشاً ومعاهد ومؤسسات وكليات عسكرية ، ومن هنا فلا بد من دراسة أصول وأسس هذه العقيدة ووضعها فى ثوب معاصر يمكن الجيل المسلم المعاصر من الانتفاع بها .

وللأمة الإسلامية فى هذا المجال تاريخ باهر وتراث ضخم ، يجب استعادة كتابته والنظر فيه والاستفادة منه فى بناء نفسية وعقلية الأجيال المسلمة الجديدة (فقد أحرزت أمة الإسلام عبر تاريخها الطويل انتصارات عـــديدة كما حاقت بها هزائم متكررة ، إلا أن التاريخ يشهد دائماً على أن انتصار المسلمين كان قرين ارتباطهم بعقيدتهم الإســـلامية وأن هزائمهم كانت فى البعد عن العقيدة أو الجهل بها أو الجنوح إلى غيرها) .

ويبدو هذا المعنى واضحاً فى تجربة العصر الحديث عندما غفل المسلمون عن منظومتهم الأصيلة وتاريخهم العريق ، وراحوا يقلدون

الحرب وينقلون منه أنظمته واستراتيجيته ومضامينه النفسية فى عوامل النصر والهزيمة متجاهلين الفوارق البعيدة بين قوانين الإسلام للنصر التى يقوم على الإيمان والعقيدة والبذل والتضحية وبيع النفس لله ، والتى تتجه فى سبيل هدف واضح لا مطمع فيه ولا رغبة فى كسب خاص ولكن من أجل إعلاء كلمة الله ونصر وتثبيت وجود هذا الدين الحق ، وقد تركوا هذا كله وذهبوا يقايسون الأمور بمقاييس المادة وغفلوا عن عطاء الله الخفى الكامن وراء الإيمان (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين) .

وقد جرب المسلمون قانون النصر كما يرسمه القرآن فى معاركهم الحاسمة والفاصلة مع التتار والصليبيين فى الماضى وفى معارك كثيرة فى العصر الحديث ، فى الجزائر وفى رمضان وتبين لهم كيف كانت صيحة (الله أكبر) بمثابة سلاح كونى يدرس الآن فى معاهد الاستراتيجية العسكرية العالمية .

وتقوم العقيدة العسكرية فى الإسلام على أساس الجهاد فى سبيل الله باعتباره جوهرها منبعاً ، إنه مبدأ إسلامى كرم به الحق تبارك وتعالى الأمة الإسلامية .

كذلك فإن النظرية الاستراتيجية للحرب فى الإسلام تقوم على أساس استراتيجية الردع الدفاعى ، والردع الهجومى المباشر ، والمحدود والشامل ، ومن أهم الخصائص المتميزة لاستراتيجية الردع

فى الإسلام أنها يعتبر من أرقى مناهج التوفيق بين الغاية والوسيلة إذا ما قورنت بغيرها من الاستراتيجيات الوضعية .

وتقوم العقيدة العسكرية الإسلامية على بناء المقاتل المسلم باعتبار أن الإنسان هو العنصر الحاسم فى المعركة ، ولها ضوابطها فى اختيار القادة وصفاتهم ومالهم من حقوق وما عليهم من واجبات فضلا عن إعداد الدولة للحرب وكيفية تنفيذ هذا الإعداد فى إطار (عقيدة الجهاد) متخذاً من قوة قاعدة الإسلام فى المدينة نموذجاً تطبيقياً . هذا بالإضافة إلى التعبئة الاقتصادية التى هى فريضة وتكليف لرعاية أسر المقاتلين والشهداء والمصابين والمهجرين تحقيقاً لمبدأ التكافل الاجتماعى الذى أرساه الإسلام . هذا وتجرى مواجهة الهزيمة وعبورها والاستفادة مما خلفته من دروس .

(٣)

يقرر اللواء جمال الدين محفوظ : أن مستقبل المسلمين وتقدمهم مرهون بقدرتهم على الدفاع عن أنفسهم ، ولقد كانت الأمة الإسلامية عندما اختار الرسول ﷺ الرفيق الأعلى على مستوى عصرها فى القوة والمنعة . وكان لديها القدرة على مواجهة أكبر قوتين عالميتين فى ذلك العصر . فارس وبيزنطة . تلك المواجهة التى حدثت على الفور ومنذ عهد الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضى الله عنه . وإذا كان رسول الله ﷺ قد قال فى خطبة الوداع (تركت فيكم

ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدى : كتاب الله وسنتى) فإن المسلمين بعده أدركوا بكل الفهم والوعى - أن المحافظة على قوتهم الرادعة هى مما ينبغى عليهم أن يتمسكوا به باعتباره أمانة عظمى فى أعناقهم. وتكليفاً باقياً إلى أن تقوم الساعة .

ولقد عمل المسلمون بسنة التطور التى نبههم إليها نبيهم لتنمية كفايتهم القتالية فأدخلوا كثيراً من التهذيب والتحسين على أسلحة القتال والتركيب التنظيمى للجيش وأساليب القتال ، وقد شهد لهم الامبراطور البيزنطى (ليو) فقال : إن الجندى العربى ما كان يفترق عن الجندى البيزنطى فى المؤن والسلاح.

وقد أضافوا إلى العسكرية الإسلامية نظريات جديدة لم يألفوها فى عصر النبوة مثل عمليات : عبور الأنهار والحصار الطويل والمسير الطويل وتأمين خطوط المواصلات والإمدادات الطويلة وإقامة الثغور والقواعد الحربية والإدارية وإدارة شئون البلاد المفتوحة . كما استطاعت القيادة الإسلامية إدارة دفة الحرب فى جبهتين استراتيجيتين فى وقت واحد فى مواجهة أكبر قوتين عالميتين : وذلك مثل فريد فى التاريخ .

واقتحم المسلمون بكل اقتدار مجالاً جديداً تماماً هو الحرب

البحرية فأدخلوا السلاح البحرى فى الاستراتيجية العسكرية الاسلامية لأول مرة فى التاريخ وأتقنوا فنون الحرب فى البحار بسرعة مذهلة. حتى أنهم انتصروا على أسطول بيزنطة فأنهوا بذلك عصر السيادة البيزنطية على البحر الأبيض المتوسط وبرزوا كقوة مؤثرة ذات ثقل عسكرى وسياسى واقتصادى فى عالم هذا البحر .

كذلك فقد أنزلوا فارس وبيزنطية عن عرش الفن الحربى بامتداد فتوحاتهم فى أقل من مائة عام من حدود الصين شرقاً إلى شاطىء الأندلس غرباً .

وحرصوا على تعليم الأجيال الجديدة المبادىء العسكرية الإسلامية والتاريخ الحربى الإسلامى . قال زين العابدين بن الحسين بن على رضى الله عنه (كنا نعلم مغازى رسول الله ﷺ كما نعلم السور من القرآن) وعن اسماعيل بن محمد بن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنهم : كان أبى يعلمنا المغازى والسرايا ويقول « يا بنى إنها شرف آبائكم فلا تضيعوا ذكرها » .

• • •

ويكفى أن نتساءل : • **هل لدى المسلمين اليوم القوة الذاتية القاهرة على الردع وتحقيق الأهداف الاستراتيجية .**

• هل جيوشهم على مستوى العصر وهل يتفقون على البحث والتطوير كما تتفق الأمم الواعية لتحقيق هذا الهدف .

• هل يدرس أبناؤهم اليوم فى الكليات العسكرية مبادىء ونظريات العسكرية الإسلامية والتاريخ الحربى الإسلامى ، أم أنهم يكتفون بالنقل عن الشرق أو الغرب حتى أصبحوا مقطوعين عن أمجادهم ومقوماتهم الأساسية المطبوعة بطابع الدين والعلم والاخلاق .

• هل (حب الجندية) يملأ قلوب شبابنا اليوم ، وهل يقبلون على العلم والعمل والإنتاج بكل طاقاتهم لبناء أمتهم وبناء قدراتها الدفاعية .

هذه الأسئلة يجب أن تدور فى عقولنا وقلوبنا اليوم ، فالاجابة ترشدنا إلى ما ينبغى عليه لحاضرنا ومستقبلنا ولا ينبغى أن تغيب عنا (الرؤية التاريخية) ففى التاريخ العبرة التى يسترشد بها والتجارب التى ينتفع بها ، ثم إن لنا من تعاليم ديننا ما يغنينا عن البحث عن نظرية تحقق لنا فى عصرنا ـ وفى كل عصر ـ الأمن والسلامة وبناء القوة التى تردع أعداءنا وتؤمن نهضتنا الحضارية المنشودة .

هذا وبالله التوفيق ؟

رقم الإيداع ٤٥٠٧ / ١٩٨٩

مطبعة دار البيان بمصر
ت ٩٣٨٦١٩